فتح الرياض

في صفر من عام ١١٨٧ هـ . سار عبد العزيز الى الرياض وقـاتل أهلها عدة ليال متصلة ، واستولى على كثير من بروجها ، وهدم مرقبها ، وقتل من أهلهـا خلقاً كثيراً ، فشاع الرعب والفزع بينهم ودبَّ اليـأس الى نفوسهم ، ولكن الموحدين لم يدخلوا البلدة ، لأن عددهم لم يكن كبيراً ، فاكتفوا بضربتهم القاصمة وعادوا الى الدرعية للاستجمام والاستعداد للمعركة القادمة الحاسمة !

كان دهام بن دواس قد تضعضع كثيراً بعد مصرع ولديه ، فلما جاءت هذه الغزوة الشديدة ، عرف أن لها ما بعدها ، وأن وراءها ما هو أشد منها ، لأن أنصار الدعوة يتكاثرون وقوتهم تتعاظم ، فلم يعد يفكر إلا بالهرب من الرياض ، بنفسه وأهله ، إلى أي مكان آخر ، يحميه من غضب عبد العزيز ، وهكذا جمع أعيان الرياض وأخبرهم بما عزم عليه ، فلاموه وحاولوا جهدهم حمله على الرجوع عن عزمه ، مؤكدين ولاءهم له ومعلنين صدقهم في السير وراءه .. ولكنه أصرَّ على رأيه .

وفي منتصف ربيع الثاني من عام ١١٨٧ هـ . خرج عبد العزيز بجيش كثيف من رجال الدرعية وغيرهم الى الرياض ، وكان ينوي ، هـــذه المرة ، الاستيلاء عليها مهما يكلفه ذلك من التضحيات ، فلما وصل الى قرب (عرقة) ، جاءه

البشير بأن دهـــام بن دواس هرب من الرياض الى (الدلم) ، وتبعه كثير من أهلها ، وأن الرياض الآن خالية تماماً من المقاتلين، ولم يبقَ فيها إلا المستضعفون من الشيوخ والنساء والأطفال !..

قال ابن بشر : (... فحثّ عبد العزيز السير اليها ، فقدمها بعد العصر ، فإذا هي خالية من أهلها إلا القليل ، وإذا دهـام قد ألقى الله في قلبه الرعب ، فخرج منها في النهار بحرمه وعياله وأعوانه . وهـذا شيء حدث عليه في يومه ذلك ، ولم يكن اعتقده ولا َهمّ به ولا خاف من أهل بلده خيـــانة ، بل كلهم صادقون معه ، ولا حصل عليه تضييق ُيلجئه الى ذلك ، والحرب بينه وبين المسلمين سجال ، له وعليه ، ولكن الله سبحانه جعلهـــا آية لمن افتكر وعبرة لمن اعتبر .

قيل: إنه قام فزعاً مرعوباً وركب خيله ونجائبه وجعل عليها نساءه وعياله. فلما ظهر من قصره قال :

(يا أهل الرياض ، إن لي هنا عدة سنين أحارب ابن سعود ، والآن سئمت من الحرب ، وتركتها له . فمن أراد أن يتبعني فليفعل ، وإلا فليجلس مكانه في البلد) .

ففرّ أهل الرياض في ساقته ، الرجال والنساء والأطفال ، لا يلوي أحد على أحد ، هربوا على وجوههم الى البرية في السهباء ، قاصدين (الخرج) ، وذلك في الصيف ، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً . ويقول ابن غنام : إن أربعمائة من أهل الرياض النازحين هلكوا في الطريق من شدة الحر !

ويقول ابن بشر في وصفه لهلع سكان الرياض وفزعهم : إن الرجل منهم كان يأخذ الغرب ويجعل فيه ماءً يحمله على ظهره والغرب لا يمسك مــــاء ، والإبل عنده ولا يركبها، وتركوها – أي الرياض – خاوية على عرشها والطعام واللحم في قدوره ، والسواني واقفة في المناحي ، وأبواب المنازل لم تغلق ، وفي البلد من الأموال ما لا يحصر .

فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلا قليلا ، فساروا في إثرهم يقتلون ويغنمون ، ثم إن عبد العزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما فيها ، وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والأمتاع وغير ذلك ، وملك بيوتها ونخيلها إلا قليلها .

وكان قد أقام هذا الحرب نحواً من سبع وعشرين سنة .

عدد القتلى :

ذكر ابن غنام – ثم ابن بشر نقلاً عنه – أن القتلى في هذه المدة نحو أربعة آلاف رجل، الذين من أهل الرياض ألفان وثلاثمائة، ومن المسلمين ألف وسبعمائة.

وعندنا أن هذه الأرقام مبالغ فيها ، فقد أحصينا عدد القتلى من رجال دهام ابن دواس الذين ذكرهم ابن غنام في حوليات المعارك التي وقعت بين الرياض والدرعية فلم يصل إلى أربعمائة .. وقتلى الدرعية وأنصارها دون ذلك ، ولعل جملة من قتلوا في المعارك جوعاً وعطشاً نصف العدد الذي قدره ابن غنام أو أقل ..

مضرب الامثال :

يقول ابن بشر إن هرب ابن دواس من الرياض صار مثلاً يضرب في نجد وغيرها (فيقال لكل من فعل حماقة تليق نسبتها اليه ، كخروج من نخل أو بيت أو بيعها أو بيع سلعة لغير ضرورة أو خروج من بلد إلى بلد غيرها : (هذا مثل ظهور دهام بن دواس من الرياض) .

ويقول فيلبي : (لا يزال الناس في نجد يذكرون هروب دهام بالسخرية .. لكننا لا نملك إلا القول إنه كان رجلاً بطلاً ... حارب بحزم... ولكنه حارب في سبيل قضية خاسرة ، وربما كان انهيار دفاعه المفاجىء يعود لفقد ولديه أثناء هزيمته في السنة السابقة ، فقد كان لهذا الحادث أعمق الأثر في نفس رجل أنهكته الحروب التي خاضها طول حياته) ..

عظمة هذا النصر :

يعدّ فتح الرياض أول نصر عظيم وكسب جسيم لعبد العزيز ، وقد تمّ بعد انقضاء السنة السابعة من ولايته ،وبذلك صفا لعبدالعزيز ملك العارض،لأنه تخلص من خصمه العنيد ، الذي كان يقيم في جواره ويساعد عليه أعداءه، ولا شك في أن هزيمة ابن دواس أدخلت كذلك الوهن والقنوط على قلوب حلفائه ، لأنهم خسروا محارباً قوياً لا رجاء لهم بعده في الوقوف أمام عبد العزيز !

كانت قوة الرياض ضد عبد العزيز والآن أصبحت معه ، وهذا وحده تبدُّل هائل في ميزان القوى .

والحق إن سقوط الرياض كان كسقوط الثمرة الناضجة على الأرض، من تلقاء نفسها .. ولكن نضوجها ، وبالتالي سقوطها ، لم يتم إلا بعد ربع قرن أو نحو ذلك ، فقد كان هيناً في نهايته ولكنه كان شديداً في مقدماته .

دخل عبد العزيز الرياض دخولاً سلمياً هـــادئاً ، واعتبرها « فيئاً » ، فضمّ الكثير من دورها ونخيلها وأموالها الى بيت مال المسلمين .

ثم نادى بالأمان لأهل الرياض ، وأرسل الى الهاربين يعدهم العفو ويدعوهم الى العودة ، فظهر كثير من المستخفين وعاد كثير من النازحين .

أقام عبد العزيز في الرياض مدة ، رتب خلالها أمورها ، وولـّى عليها أميراً — هو عبد الله بن مقرن بن محمـد بن مقرن — واختار لها إماماً على الصلاة ، ثم غادرها الى الدرعية .

تهنئة الشيخ ونصحه :

كان الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب أسرع الناس الى تهنئة عبد العزيز بهذا النصر العظيم ، فأرسل اليه ، مع رسول من أهل الدرعية ، كتاباً رائعاً يقول فيه :

(... أحب لك ما أحب لنفسي ، وقد أراك الله في عدوّك مـا لم تؤمّل ، فالذي أراه لك أن تكثر من قول الحسن البصري ، كان إذا ابتدأ حديثه يقول :

« اللهم لك الحمد بما خلقتنا وهديتنا وفرّجْتَ عنا ،
لك الحمد بالإسلام والقرآن ،
ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كبتْ عدوّنا ، وبسطتَ رزقنا،
وأظهرتَ أمننا ، وأحسنتَ معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا
أعطيتنا ،
فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً طيباً حتى ترضى ، ولك الحمد إذا
رضيت ») .

قصيدة ابن غنام :

وقد نظم ابن غنام قصيدة في فتح الرياض أجاد فيها ، وهذه طائفة من أبياتها :

كشف الحق ظلمة الإغلاس	ومحا الدين جملة الارجاسِ
وطيور الأفراح بالفتح غنّت	فوق أفنان غصنه الميّاس
حين أمّ الإمام بالفتح ساعٍ	مخبر عن جلا ابن دوّاس
خلّد الله في النعيم إماماً	أظهر الدين بعد طول ارتكاس
ساعدته عصابة الحق حتى	لبسوا للحرب أقوى لباس
بذلوا للجهاد فيه نفوساً	روّضوها للموت بعد شماس

في المقامات :

أشار الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في « مقاماته » الى عداوة ابن دواس الشديدة للدعوة في زمن محمد بن سعود ثم في زمن ولده عبد العزيز ، قال :

(... فأول من عاداهم أقرب الناس اليهم بلداً وأقواه كثرة ومالاً : بلاد دهام بن دواس، وهو أول من شنّ الغارة عليهم على غفلة وغرّة وعدم الإحتساب

منهم ، فخرجوا على فشل ، فقتل منهم رجالاً ، منهم فيصل وسعود ابنـا محمد ابن سعود .

فسبحان من قوّى جأش هذا الرجل على نصرة الدين ، حين قُتل ابناه .

ثم سطا عليهم مرة ثانيـة ، فقتل كثيراً ممن سطا بهم ، فأخذ المسلمون الثأر منهم ، ثم بعد ذلك استمرت الحرب بينهم وبينه أكثر من ثلاثين سنة ، وفي تلك الثلاثين السنة أو أكثر أعانه على حربهم : أهل نجران ، وابن حميد شيخ بني خالد مراراً ، فيأتونهم بأنواع الكيد والكثرة ، فينصرهم الله عليهم .

وفي ذلك أعظم عبرة) .

أموال الرياض :

جاء فتح الرياض في وقت شديد على أهل الدرعية ، فقد استمر القحط أكثر من سنتين ، وكان الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب يستدين لإطعام طلابه وأنصاره والقيام بحوائجهم ، فلما فتحت الرياض وفى ديونه كلها .

قال ابن بشر : (كان الشيخ ، رحمه الله ، لما هاجر اليه المهاجرون ، يتحمل الدين الكثير في ذمته لمؤونتهم وما يحتاجون اليه وفي حوائج الناس وجوائز الوفود اليه من البلدان والبوادي ، ذكر لي أنه حين فتح الرياض كان في ذمته أربعون ألف محمدية ، فقضاها من غنائمها) .